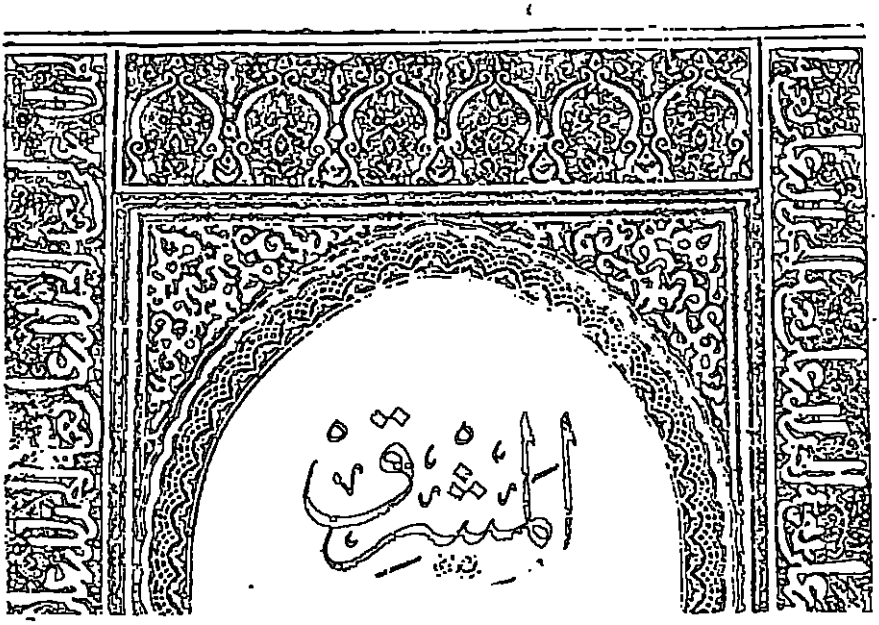

حزيران ١٩٣١

عبرة المنظار

في

نظام الكون

بقلم الفس عبد المسيح زهر

اذا أطلق المرء لرائد طرفه العنان وأرسله يتأمل هذا الكون غير المتناهي ، رأى فيه نظاماً كاملاً بديعاً لا يعروه اختلال ولا يلمّ به تشويش . فاذا كان في الكون نظام ، وجب ضرورة ان يكون لهذا النظام منظم ازلي سرمدي قدير يرعاه ويعتني به ؛ ولولاه لدثر وتلاشى .

في الكون نظام كامل

ما اعظم العجب الذي يستحوذ على المرء لدى نظره الى القبة الزرقاء ، ورؤيته الكواكب الكثيرة المرصعة في كبدها ! فاذا تأمّل المتأمل كثرتها وتفاوتها في الضياء واللمعان والوبيص ، وأنعم النظر في اختلاف الوانها ،

وعرف سرعة سيرها ودورانها ، زاد عجبه ؛ وذلك لانه يرى في هذه العوالم دلائل جلية واضحة على حكمة وفطنة وقدرة لا يسبر غورها ولا يدرك كنهها ، والفى فيها نظاماً يشف عن منعة عقل موجده وعظم مبلغ قدرته غير المتناهية ، وقام في نفسه من اجل ذلك فكر بل افكار تستغرقه بكليته ، وتستوعب مداركه ، وتحمله على قضاء اشد العجب من عظمة المنشئ الاعظم والمبدع الاكبر الذي انشأها وابدعها « اذ بعظم جمال المبروءات يُبصر فاطرها على طريق المقايسة .» [1] فيا ايها الانسان الضعيف ، الذي يقع في خلده انه شيء ، انك تقف حائراً امام هذه العوامل المحدقة بك ، وتدهش من قوتها وفعلها ، والنظام الذي تتبعه في سيرها وتنقلها وحركاتها ، « فهلا تتفهم كم منشئها اقوى منها ؟ »[2]

على ان روية السماء ليلاً طالما شحذت قرائح الشعراء ، وألهمت عقولهم تلك الاقوال الجميلة ، وأثارت في القلب البشري عواطف التعظيم والتمجيد والتقديس لبارئها . فالمرء من عادته ان يملّ من تكرار النظر الى الشيء ، بيد ان النظر الى السماء لا يُملّ ؛ بل كل نظرة اليها تسمو بالناظر الى ما وراء الطبيعة ، اي الى عالم الوجود والارواح . قال اللورد بيرون (Byron) الشاعر المشهور : « عند انتصاف الليل تكون القبة الزرقاء مرصعة بالنجوم ، فكانها حينئذ جزائر انوار في وسط هذا المحيط القائم فوق رؤوسنا . فمن يتأملها ويعوج بنظره على الارض ولا يشعر بحزن وكآبة ؟ »

فمتى سقط قرص الشمس ودبّ الشفق الاحمر في حاشية الافق ، نرى اذ ذاك عيون الكواكب تطلّ علينا من كبد العلياء ، ومهما تصرّم الشفق ودجا الليل ظهرت النجوم منصوبة فيها كالمصابيح المتّقدة ، وشرعت تسبح في اجواز الفضاء كانها كتائب مكتّبة زاحفة الى ساحات القتال كل برج ككتيبة عليها نجم قائد يفوق اصحابه ضياء ولمعاناً . فيا لله ما اجل وابهى هذا المنظر ! « السماوات تنطق بمجد الله والجلد يخبر بعمل يديه . »[3]

ان المسافر او السائح او النافض الساثر في الارض لينفض الاماكن والبلاد

---

١) حك ١٣ : ٥ ٢) حك ١٣ : ١٤ ٣) مز ١٨ : ١

وينظر جميع ما فيها ويعرفه ، اذا اوغل في مجاهل افريقية مثلاً او آسية ، قصّى العجب من كبر الارض واتساع هذه السيارة الصغيرة التي نسكنها. ولكن ما يكون عجبه ودهشه اذا عرف ان حجم المشتري يكبر حجم الارض ١٢٣٤ مرة ، وان حجم ابط الجوزاء (Bételgeuse) يكبر حجم الشمس ٣٠٠ مرة ، وحجم الارض ٢٧,٠٠٠,٠٠٠ مرة ، وان قلب العقرب (Antarès) يكبر الشمس ١١٣,٠٠٠,٠٠٠ مرة ، والارض ٣٧,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مرة ، وانه يبقي ١,٢٧٠,٠٠٠ ارض مثل ارضنا لتساوي حجم الشمس ، وان الشعرى العبور (Sirius) تكبر الشمس ثلاث عشرة مرة؟ فلولا النورُ المنبعث من الكواكب لما اخذتها العين بالرغم من كبرها ، ولا وقع عليها البصر ، ولا استطاع الفلكيون قياس ابعادها ومعرفة شرائع سيرها في افلاكها . على ان الابعاد القائمة بيننا وبين الكواكب لا تقاس بالاميال بل بالسنين . من المعلوم ان النور يقطع في الثانية ٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر ، ومع كل هذه السرعة فلا يصل الينا من الشمس الا في ثماني دقائق . وبناء عليه فان سنة النور عبارة عن ٩,٤٥٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من الكيلومترات واكثر . فاذن ماذا تكون المسافة التي بيننا وبين الشعرى العبور التي يصل الينا نورها في ثماني سنين ونصف سنة ، او بالحري المسافة التي بيننا وبين النجمة القطبية من بنات نعش الصغرى التي لا يصل الينا نورها الا في ٤٥ سنة ؟ وقد ذهب هرشل الى ان نور النجوم البعيدة لا يصل الينا في اقل من مليون سنة.

عدد النجوم . اجمع الفلكيون على ان العين تستطيع ان تبصر نحو ستة آلاف نجم ، وقد تمكنوا من احصاء ٧,٦٠٠ نجم بالعين المجرّدة . ولكن العين لا ترى سوى نصف قبة السماء ولا تأخذ الكواكب التي في حاشية الافق. فاذن العين المجرّدة لا تبصر سوى الفين او الفين وخمسمائة نجم . بيد ان من يتنقل في الارض من مكان الى مكان ويستطيع رؤية الفلك كله يتمكن من رؤية ٦ الاف نجم . فيرى ٢٠ من الكبر الاول و ٥٣ من الثاني ، و١٥٧ من الثالث ، و٥٠٦ من الرابع و١٧٤٠ من الخامس و ٥١٧٠ من السادس. واما ذوات الكبر السابع فهي قليلة جدًّا ولا تتاح رؤيتها الا لمن كان حديد البصر.

ولكن شتان ما بين ما تراه العين المجردة وما يُرى بالمرقب. ففي اواسط الجيل الماضي نظم جروم ده لالند لائحة وضمنها ٤٨,٨٠٠ نجم . وفي سنة ١٨٦٣ اوصلها ارجلندر (Argelander) الالماني مدير مرصد بُن (Bonn) الى ٣٢٤,٢٠٠ . ثم اوصلوها في سنة ١٨٦٥ الى ٥٠٠,٠٠٠ وانتهوا الى الكبر التاسع ووقفوا. واما اليوم فبفضل آلات الرصد والمجاهر والمراقب المتقنة فقد وصلوا الى الكبر الحادي والعشرين واستطاعوا احصاء ستمائة مليون من النجوم ، بل ان هرشل عدّ بمرقبه اكثر من ١٨ مليوناً في المجرّة فقط. وقد ذهب اللورد كلفن (Kelvin) وهنري پوانكاره الى ان النجوم التي ترى بالمرقب تبلغ المليار ، فضلاً عن ركام النجوم كركام الثريا والمجرّة والجاثي (Hercule) ، وعن السُدم اي هذه السفع البيضاء التي هي عبارة عن نوى غازية متخلخلة كل التخلخل متباعدة الذرّات باردة جدًا لان الحرارة لا تتولد الا متى تزاوجت الذرّات وتصادمت تصادماً متواصلاً . وقد عرف العلماء الفلكيون الى اليوم نحو اربعة آلاف سديم . ونزيد على ذلك المذنّبات [1] والنيازك والرجوم. فهذه الكواكب الكثيرة العدد ، والسيارات واقمارها ، والمذنّبات والسدم والنيازك والرجوم كلها تسبح في كبد السماء وتسير بنظام عجيب لا يطرأ عليه اختلال بالرغم من اختلاف حجومها وتفاوت سرعتها وتباين مدد دورانها في افلاكها . فالارض مثلاً تدور على نفسها دورة كاملة في ٢٤ ساعة بسرعة ٤٦٥ متراً في الثانية ، فينتج من هذه الدورة تعاقب الليل والنهار ، وتدور حول الشمس دورة اهليلجية سنوية طولها ٩٣٦ مليون كيلومتر بسرعة ٢٩ كيلومتراً و ٧٦٠ متراً في الثانية ، فينشأ عنها اختلاف الفصول . والشمس تدور على نفسها دورة

١) عرف الفلكيون الى الان نحو ٣٠٠ مذنب. منها ستون تدور دورة اهليلجية في اوقات معلومة ، وهي تابعة لنظامنا الشمسي . ومنها ما ينجز دورته في ثلاث سنين واربعة اشهر كمذنب إنك (Encke) الذي ظهر في شهر آب سنة ١٩٠١ . ومنها ما ينجز دورته في ست سنين وتسعة اشهر ونيف كمذنب ولف (Wolf) الذي ظهر في شهر شباط ١٩١٢ . ومنها ما يحتاج الى ٧٦ سنة وبضعة ايام كمذنب هالي الذي ظهر في نيسان ١٩١٠ ، وسوف يظهر في سنة ١٩٨٦ . اما اذناب هذه المذنبات فطويلة جدًا فمنها ما يبلغ ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ كيلومتر كالمذنب الذي ظهر سنة ١٨٤٣

كاملة في مدة ٢٥ يوماً وتسير متجهة الى جهة برج النسر الواقع بسرعة ٢٠ كيلومترًا في الثانية . والسيارات التابعة لنظام شمسنا تدور ، والمذنبات تدور ، وكل ما في الكون يتحرك ويسير ويدور ، وما من شيء ثابت . على ان سرعة النجوم في الثانية تقدّر من الثلاثين الى الخمسين كيلومترًا ، ولكن بعضها يقطع ٢٢٥ كيلومترًا بل ٣٥٠ ، مثاله السماك الرامح الذي مبلغ سيره السنوي ١٣,٠٠٠,٠٠٠ مليون كيلومتر . غير ان سرعته عند دنوّه من الارض تهبط الى ٢٧١ كيلومترًا . ثم ان الشعرى العبور تبتعد عنا كل يوم ٢,٨٠٠,٠٠٠ كيلومتر ، وبعدها عنا ٨١ تريليون كيلومتر . وكذلك سيارة نبتون التي اكتشفها (Le Verrier) تدور حول الشمس في ١٦٤ سنة و٢٨٠ يوماً واربع ساعات . فاي نظام اعجب من هذا النظام !

واذا صرفنا بصرنا عن السماء وعجائبها وصوّبناه الى الارض متأملين المواليد الثلاثة اي المعادن والنبات والحيوان ، رأينا هناك ايضاً ما يحيّر الالباب ويخلب القلوب . فالمولود الاول يتناول الشمس والقمر والقسم الاكبر من الارض ويحيي اخويه ، ويضمن لهما الدوام والبقاء ، ولولاه لما عاش النبات والحيوان . على ان الثقل مثلاً والضغط الهوائي يؤثران في حياة الاثنين . ولما كان الثقل مناسباً لحجم الارض نتج من ذلك ان زيادته ونقصانه يعملان في الانسجة التي تتركب منها الاجسام الحية ، وفي العضلات والدم الذي يسقيها ويحييها بذهابه وايابه . ولولا هذا لباد المولودان او احتاجا الى تغيير يدخل على آلاتهما . فاذن الشمس والقمر والجبال والرمال والصخور والسهول وكل ما في الكون يؤثر في حياة النبات والحيوان والانسان .

فاذا انطفأت الشمس ، سراج النهار ، يوماً — وهذا امر لا بد منه بعد ملايين من السنين لا يعلم احد مقدارها — اضمحلّت الحرارة ، وامتنع بخار الماء ، وانحبس المطر ، وانقطعت الانهار والعيون ، وشمل البرد الارض برداءه الصفيق ، وهلك كل حي لان لا حياة بلا حرارة . فالارض اذن محتاجة الى الشمس ولا تستطيع العيش بدونها . ثم ان للقمر تأثيرًا وعملاً في الارض . أليس هو العامل في ارتفاع المدّ وانحسار الجزر ؟ فلولا هذه الحركة ولولا امتزاج الهواء بمياه الابحر لانقرض سكانها وبادوا من عند آخرهم .

وكذلك يحتاج النبات والحيوان كل منهما الى صاحبه . فالحيوان محتاج الى النبات ، والنبات محتاج ايضاً الى الحيوان ولا غنية له عنه ، اذ ان الحيوان يستنشق من الهواء الاكسيجن[1] الذي يمجه فيه النبات ، وينفث الحامض الفحمي من رئتيه الى الهواء ، فيستنشقه النبات وينمو به . وعلى هذا النحو لا يزال كل منهما نهم العون على نمائه وصيانة حياته . ولكن لما كان الانسان ملك الخليقة واشرف الكائنات قدراً واكملها جسماً وعقلاً ، خُلق واتى الى عالم الوجود بعد خلق النبات والحيوان ، وتسلط عليهما وسخرهما لخدمته وحفظ حياته . « وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الارض وكل الدبابات الدابة على الارض . وقال الله : ها قد اعطيتكم كل عشب يبزر بزراً على وجه الارض كلها وكل شجر فيه ثمر يبزر بزراً يكون لكم طعاماً . » (تك ١ : ٢٦ و ٢٩) قال منسبره : « ان الانسان رب « الطبيعة » وقيمها يتخذ من المواليد الثلاثة الكنّ الذي اليه يأوي ، والثياب التي بها يتدثر ، وادوات الزينة التي بها يتجمل ، والاطعمة التي بها يتغذى ، والروائح الطيبة التي يشمها ، والادوية والعقاقير التي بها يعالج ادواءه ، والقوة التي ترجع اليه نفسه بعد الاعياء ، ويتخذ منها ادوات عمله ومواد اختراعاته ، ويستخدم بها قوى عقله ويرضي اميال خياله وحواسه . . . بل في طوقه ايضاً ان يكتشف القوى الكامنة في الطبيعة وينتفع بها ، ويستخدم الكهرباء بريداً سريعاً لنقل فكره ؛ وبواسطة هذا العامل (الكهرباء) وواسطة البخار زاد قوته على العمل اضعافاً . »[2]

فمَن غير الانسان فتح خزائن الطبيعة ، واستخرج دفائن كنوزها ، واستكشف خفايا اسرارها ، واطلع على غوامض رموزها وآثارها ؟ فهذا المخلوق الصغير

---

١) ان الهواء المحدق بنا من كل جانب مركب من ٢١ جزءاً من الاكسيجن ، و ٧٩ جزءاً من الازوت . وفضلاً عن ذلك فانه يتضمن شيئاً من الارغون *argon* ، ومن *néon* ، ومن *krypton* ، ومن *xénon* ، ومن الهليوم *hélium* . وكل هذه النازات قد اكتشفها العلماء في اواخر الجيل الماضي . ويعود الفضل في ابطال اعتقاد الاقدمين كون الهواء من العناصر الاربعة الى العلامة Lavoisier الذي شرح وبيّن ان الهواء مركب من عنصرين اصليين ، وان التنفس عبارة عن احتراق اذ ان عمل الهواء في اضرام النار عين عمله في اضرام الحياة .

٢) P. Monsabré, *Conférences*, 1871.

الكبير ، والشريف الحقير اصبح ، بفضل عقله ، رب الطبيعة وقيمها يسخرها في ما يشاء ويستخدمها في خلق ما لم تخلق . اما انه اتخذ له خيلًا وسراكب ليست من حيوانها ، وناراً ليست من جذلها وعيدانها ، واضواء ليست من شمسها وقمرها ؟ فلو لم تكن المعادن والنبات فانى كان له ذلك ؟ اذن المعدن الركن والقوام ، والنبات والحيوان الكمال ، والانسان القيم المسلط على هذا البناء ، فاذا تضعضع البنيان بقيت الاركان ، وان خرّ سقفه تداعت الجدران . فلا غرو اذن ان قلنا ان الشمس والقمر والارض والمعادن والنبات والحيوان خلقت لمنفعة بني الانسان . فالارض والماء والهواء لا بد منها لحياة النبات ، والارض والماء والهواء والنبات لا بد منها لحياة الحيوان ، والارض والماء والهواء والنبات والحيوان لا بد منها لحياة الانسان الذي زانه الخالق ، عزّ وجلّ ، بالعقل والفهم والاختيار . فالكون كله مسخّر لخدمته وتحت قهره ومشيئته .

ولكن اذا نظرنا بعد اجمال القول الى جسد الحيوان ، وتاملنا اعضاءه ووظائفها ، ودققنا النظر في ما بينها من التعاون والتكافل والتناصر وحسن الاتقان والرونق المعجب والجمال ، اضطررنا بالرغم منا الى القول بوجود صانع حكيم قدير ، صوّر فاتقن ، وركّب فاحسن ، وبيّن لخلائقه قوته وحكمته واعلن . فهذا الانسان الصغير الجامع في شخصه خواصّ المواليد الثلاثة لا عجب اذا تميز عن المواليد عينها وفاقها بعقله وذكائه وارادته واختياره ودينه وتقواه وحسن اخلاقه ، وتوصّل بها الى معرفة ربه وخالقه ، واستخدام الخلائق في منافعه ؛ بينما اننا نرى الحيوان يبصر الشيء المصنوع ولا يستطيع نسبته الى صانعه ، والعمل المتقن ولا يقدر على ادراك ما فيه من حسن الصنعة والاتقان . واما الانسان ، وان جاهلًا اميًا ، فاذا ابصر الشيء المصنوع الذي لا عهد له بمعرفته ، وامعن النظر في اجزائه واقسامه ومادته وآلاته ، وتامل صنعته وكماله انتقل للحال بفكره الى صانع حاذق وفنّي ماهر ، ونسب اليه اجادة عمله واتقان تركيبه . ثم اذا نظر الى الكون الذي يقع تحت بصره وتدبّر عجائبه انتقل بفكره الى فاطره وموجده ، وايقن ان الكل عمله وصنع يديه . فاذا كانت الآلة الحقيرة يظهر فيها اثر صنعة صانعها ، افلا يظهر اثر الصانع الاعظم

مثبتاً في يد الانسان التي تنقبض وتنبسط متى اراد ، او في اذنه. وصماخها وصمخاتها وقوتها على ادراك الاصوات ، او في العين وشبكتها وكثرة عروقها الدقيقة كل الدقة وحسن انتظامها وتقاربها وتجاورها ؟ فهذه الشبكة الحاوية في المليمتر المربع من ٣٠ الى ٤٠ الف عرق تبصر في الثانية ٥٠٠ تريليون من موجات النور المنعكسة . فاي اتقان اعظم من هذا الاتقان الموجود في شبكة العين التي ترى وتميز الالوان والاشكال والانوار الباهرة والضعيفة ! فنيوتن بعد تامله مليًا آلة البصر قال: « او هل يجهل صانع العين معرفة شرائع النور والبصر ؟ »

هذا وانّ آلة الرؤية في كثير من الحشرات عبارة عن مجموع اعين ذات اشكال مربعة او مسدسة متقاربة متلاصقة في اتمّ النظام واكمل الاتقان . فالذبابة لها نحو من اربعة آلاف عين من هذه الاعين الصغيرة ، وللفراشة ام دود القز نحو ستة آلاف ، ولغيرها نحو ١٢ الفاً ؛ وبهذه الاعين كلها ترى الخطر المحدق بها من كل جانب فتهرب منه وتجتنبه .

ثم ان آلة السمع لها عجائبها ايضاً . ففي الصاخ انبوب منطوٍ يشبه صدفة الحلزون مشتمل على جليدات ، والجليدات مشتملة على نحو ستين الف عرق . وكل هذه العروق ممتدة كالاوتار ، وكلها متفاوت في الكبر والصغر ، والطول والقصر . ومن حدث صوت او حسيس اضطربت هذه العروق واهتزّت هذه الاوتار وادرك السامع ذلك الصوت او الحسيس . بل من يستطيع ان يفهم القوى المودعة في المعدة ويدرك كيف تهضم الاطعمة ؟ فكيف يتحول الطعام فينا دماً حاوياً هذه الكريات الحمراء البالغة في الانسان ٥,٦٠٠,٠٠٠ في المليمتر المكعب ، الناقلة الاكسيجن الى انسجة البدن ، والكريات البيضاء الواقفة على الدوام بالمرصاد لجراثيم الامراض تقاتلها وتدفع اذاها ؟ ثم ان في المعدة خمسة ملايين من الغديدات يتحلب منها العصير المعدي ويمتزج بالاطعمة والاشربة ليجعلها دماً جيداً صالحاً لغذاء الجسم ، يتجدّد في الرئتين ويتخلص مما علق به من موادّ فحمية او مائية او ليفية بواسطة الهواء الحامل الاكسيجن ، فيكتسب بعد السواد لونه الاحمر القانئ الجميل . فالهواء والدم يمرّان بالنخاريب الرئوية البالغة ١,٨٠٠ مليون على الدوام وبلا انقطاع طول العمر . واعجب من ذلك العروق

الشعرية الدقيقة كل الدقة الممتدة في الجسم كله الناقلة اليه الحياة والنماء بواسطة الدم . فاذا غرزنا ابرة في جسمنا قطعنا مئات منها . وماذا نقول عن الخلايا البالغة نحو ٨٠٠ مليار ؟ بل في الجسم البشري نحو ٨٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من اجزاء مختلفة مركبة كلها يعمل في اتم الاتفاق ، فضلاً عن الحيوان والنبات وما فيهما من العجائب .

هذا النظام عمل عقل

ان هذا النظام العجيب السائد في الكون بين اجزائه كلها الكبيرة والصغيرة ، والشريفة والحقيرة ، صادرٌ ولا ريب عن عقل فائق كل وصف وادراك . فكل من أوتي سلامة العقل وصحة التمييز وسداد الحكم على الاشياء توصل بسهولة الى هذه النتيجة . ولكن اذا كانت ظلمة الشهوة تحول دون النظر الى هذا الكون البديع لتأمل محاسنه ضلّ المرء عن هذه الحقيقة وتجاهلها . ولسنا نقول : جهلها ، لان الانسان لا يستطيع ، لما فيه من العقل ، جهل امثال هذه الحقائق . اما اذا كان مريض العقل فحكمه يكون مريضاً ؛ لان العقل السليم لا يستحيل عليه معرفة مدبر الكون حين اذ يرى ما فيه من النظام . واقامة البرهان اذ ذاك سهلة عليه جداً لا تكلفه مشقة عظمى ؛ وذلك لان كل عمل متقن الصنع مركب من اجزاء متباينة ، واضداد متجاورة متناسقة جارية على وتيرة واحدة ونظام كامل متبع ما طرأ عليه خلل قط منذ الوف بل ملايين من السنين لا يعلم عددها احد الا الله وحده ربّ الزمان وسيد الاكوان ، لا بدّ ان يكون لبه من باب الضرورة علة مدبرة ترعاه وتحفظه وتحوطه .. وقد رأينا اتقان هذا النظام في عالم الكواكب ، والمواليد الثلاثة ، وجسم الانسان . فلو لم يكن لهذه العوامل العديدة المتباينة المتجاورة المتقاربة المتصاقبة المنتشرة في فضاء السماء وآفاق الارض سائس حكيم ، ومدبر عليم يسوقها الى غايتها ، ويحفظ لها كيانها لتلاشت ودثرت ضرورة وبلا محالة .

اننا نعجب من تركيب عين واحدة ، واذن واحدة ، وجسم واحد ؛ ولكن ماذا يكون عجبنا اذا تاملنا عالم النبات ودققنا النظر في انواعه

الكثيرة ، وعالم الحيوان واصنافه المتنوعة ، وعالم الانسان وافراده المختلفة . ففي عالم الحيوان اكثر من ١٠٠,٠٠٠ صنف ، وفي عالم النبات اكثر من ذلك بما لا يقدر . فمن يستطيع احصاء كل صنف من الاصناف الدائرة والباقية والآتية ، وذلك منذ الوف وبعد الوف من السنين ؟ هذا وان العقل والعلم والاختبار يدلنا على ان الخلائق الحية ، موجودة كانت او مفقودة ، مركبة من اجزاء او بالحري من ذرّات متعددة ما اتت ولا تأتي ولن تأتي الى عالم الوجود من تلقاء نفسها ، بل كلها او بالاحرى كل فرد منها احتاج الى مبدع ومصوّر كله عقل وقدرة ليكوّن اجسامها من موادّ واضداد واجزاء متعددة ، ويعطيها اعضاءها المعدّة للنفس ، ولجذب الطعام ثم لهضمه ثم لدفعه ؛ ويهب لها اعصابها وعضلها وعظامها وعروقها وشرايينها واوردتها وقوتها على العمل . فهل يا ترى هذا المجموع العجيب وجد وحده بلا فعل عقل ؟ اليس هذا القول ضرباً من المحال بل حماقة الحماقات ؟ ان ڤولتر كان يتحاشى مباحثة الماديين وملاجّتهم ، ويقتصر على دفع اقوالهم وتزييف براهينهم بقوله : «املأوا كيساً تراباً ثم اجعلوا هذا التراب في برميل وامخضوه زمناً طويلاً فيخرج من البرميل تماثيل ونبات وحيوان .»

فمَن من المعطّلة يجسر على القول : ان ساعة مثلاً ، او آلة تصوير ، او ابرة وجدت وحدها بلا صانع ؟ مع ان الساعة او آلة التصوير آلاتها اقل عدداً من آلات الاذن او العين . فاذا كانوا لا يجسرون على المجازفة في بتّ امثال هذه الاحكام ، فكيف يجازفون في قول اغرب من هذا القول ، ويدّعون ان ساعة هذا الكون ، التي مضى عليها الوف وملايين من السنين وهي جديدة ، وُجدت بلا صانع ؟ واذا كان الاتفاق الاعمى الذي ينسبون اليه خلق العالم لم يستطع منذ اجيال طويلة ان يوجد بيتاً بل كوخاً حقيراً ؛ فكيف اذن يعتقدون صحة ما يقولون ؟

بقي ان العالم صنع الله علّة العلل ورب المنظورات وغير المنظورات . فاذن لقد سفه القائلون : لا اله . قال الجاهل في قلبه لا اله ، واما الحكيم فيقول : ان في الكون الهاً حكيماً قديراً اوجد الاشياء من العدم ويحفظها على الدوام ويدبّرها ويحوطها بعنايته ، له المجد والعزة الى ابد الآبدين .